رسالة المنبر

الى الشرق

من امين الريحاني الى فليكس فارس
عن طريق المقتطف

سبقني « الصيرفي » في تقريظ « رسالة المنبر الى الشرق العربي » [1] تأليف صديقي الاستاذ فليكس فارس « ولكنهُ وقف عند الاشارة الى ما هو في نظري — ونظري — « أمتع الفصول » في الكتاب « وأولاها بالمناقشة » . فجئت أكمل عمله

أن اهم ما في كتاب الاستاذ فليكس « منابت الاطفال » — ذلك الفصل الحافل بتنوع العلوم السياسية والاجتماعية والدينية ، المتأجج بنيران الغضب والتفجُّع ، المتلألىء بانوار متقطعة من انوار التصوف . وان فيه كذلك حملات على العلوم الحديثة ، والنزعات الحرة في اصلاح شؤون الانسان ، واستمرار رقيِّه في هذه الحياة الدنيا

في هذا البحث المستفيض علماً وشعوراً ، يعالج المؤلف « مشكلة من اهم مشكلاتنا الاجتماعية هي اصلاح الاسرة » . والبحث ذو شجون ، وذو فسحات للجدل والمناقشة . فهل يجوز ان يقف عنده المفرطون ساكتين واجفين ؟ هل يكتفون بتقديم الورد للاستاذ فليكس ، ولسان حالهم يقول : لغيرنا ان يقدم الاشواك — اشواك الحقيقة !

فلو قلنا كلنا هذا القول فماذا يحل بالحقيقة ؟ وحَسْبُكَ أننا اختلفنا في أمرها فاتنا لَمْضيِّعوها في اهمالنا البحث عنها . هذا من الوجهة النفسية العامة . اما من الوجهة الخاصة الشخصية فاني أبوح بسرها . وهو ان للحقيقة هذه صلةً عقليةً بصداقةٍ قديمة ، ومنَّةً روحيةً على قلبين متجاورين متحابين

ألا ان فليكسْ لصديق عزيز قديم . وقد طالما تراقفنا في جادات العقل والروح ، واتفقنا بل كنا دوماً في طليعة الحملات ، حملات الحرية والعلم ، على معاقل الظلم والضلال

(١) راجع مكتبة المقتطف عدد يونيو ١٩٣٨

واني لارى فليكس اليوم في غير تلك الطلائع والحملات . اني اراه اليوم واقفاً في المؤخرة وهو يلتفت الى الوراء ويحنح بعض الاحايين الى جادات لا أثر فيها لعلم الحديث ، وللنزعات الفكرية الحرة . فكأني به يقول : اني في هذه الثمرات الاجتماعية ، والمفاسد البشرية ، أؤثر الرجوع الى الشرائع الالهية

فهل أصلحت الشرائع « الالهية » ما فسد من المجتمع الانساني في غابر الازمان ؟ وهل هذا الفساد الذي يعتري العالم اليوم هو الاول من نوعه في تاريخ الانسان ؟ وهل يجوز — وهل يليق بنا — أن نرجع القهقرى كلما « بعبعت » الايامُ علينا ، وكلما « كشرت » الشمس أمامنا والآفاق ؟

***

ليست الظلمات التي تعثر بها اليوم بظلمات جديدة . وليس فيها ، على تكاثفها ، ما يبرر الفجع والتلوع من أولي الفكر والحجى . ان ظلمات هذا الزمان لمثل ما تقدمها ، ولا تختلف بغير مقدارها وانتشارها . هي كثيفة كالحة . نعم . هي عاتية ، ولا ريب . ولكن في قلبها ، وعلى جوانبها ، يكمن فيض من النور الازلي ، وتشع منه ، هنا وهناك ، أشعة العلم والخير والحق الاعلى

وما تاريخ الانسان في نشوئه وارتقائه غير ظلمات تخللتها أشعة من النور . في دوائر الزمان يتثقف الانسان . وان كانت كل دائرة أشد هولاً مما تقدمها ، فالانسان كذلك هو أشد عزماً ، وأكثر علماً ، في مقاومتها والتغلب عليها

هي الظلمات تغشى العلم حقباً من الدهر ، فيتبعها ، بفضل العلم الدائم النمو والازدهار ، أحقابٌ من النور . بل ان القبض الثوري ليتسع ، بعد كل ظلمة ، ويزداد حرارة وتألقاً . كذلك كان ، وكذلك سيكون . هو الناموس الدائم للرقي البشري . هو روح التاريخ في هذا العالم عالمنا . واني ، مع عدد كبير من العلماء والمفكرين ، لمؤمن به كما يؤمن الناس بالكتب المقدسة

أما الرفيق القديم ، الاستاذ فليكس ، فهو على ما أرى من غير المؤمنين إياها . هو من المؤمنين الاقدمين . أو انها عاد اليهم ، وهو ينفخ في الصور الذي نفخ فيه قديماً أشعيا وإرميا . فهل يداوي الانسان مرض يومه بما داوى أجداده امراض ايامهم ؟ هل يحيي المتروح حسة ايوب ، ويصبح مثله ويبوح ؟ أفي الكتب القديمة — المقدسة — تنشد الدواء لامراضنا الحديثة — لكل امراضنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ؟ لست ممن يرون ذلك . لست من اصحاب السوداء والردات . حسبنا ان نعود الى التاريخ لنرى ما فعلته الاديان في أبنائها.

ومع ذلك فقد أدى كل دين رسالته في فترة من الدهر مقدارها الف سنة ، او ألفان من السنين. وبات بعد ذلك جاثماً يابساً عقيماً ، لا يقوّم معوجّاً ، ولا يصلح فاسداً ، حتى ولا يسد فراغاً في العقل ، او في القلب ، او في الروح

ومن العبث ان نلجأ اليوم الى مهابط الوحي القديمة ، نحاول الاستنارة بنورها الضئيل — يشمسها الغاربة . لكل أجل كتاب ، ولكل كتاب أجل ، وعلى الاخص في ما يتعلق بالانسان الحر ، وبأسرته ، ووطنه ، وبزعاته العاطفية والوجدانية والفكرية . والانسان الحر رائد الناس

أما كتاب اليوم فهو كتاب العلم . ومن فروع العلم الحديث ، ان كان في تحسين النسل البشري eugenics او في تقييد birth-control فروعٌ صالحةٌ مفيدة ، هي آخذة بالانتشار يوماً فيوماً ، ولا حؤول في انتشارها . فان كان في انطلاق الغريزة الجنسية من قيودها ما سيُهلع لها القلوب ، فان في مجرد الانطلاق شيئاً من الخير . وسيكثر هذا الخير ، وستقل تلك المآسي ، رويداً رويداً ، كلما ازدادت فيوض النور التي تنبع الظلمات التاريخية

وهاك مثالٌ زماننا من هذه الظلمات ، او من تلك الفيوض النورية — كما تشاء . تقوم اليوم في بلاد السوفيات الروسية تجربة اجتماعية سياسية اقتصادية منقطعة النظير في تاريخ الانسان . ويجب علينا ان نصبر لنرى نتائجها . ليس من الحق ، ولا من العدل ، ولا من الحكمة ، ان نسارع الى شجبها ، او نحكم اعتباطاً عليها . فقد تكون في نتائجها أفظع التجربات ، وقد تكون أكثرها خيراً ونعمة . علينا ان نصبر . والصبر في مثل هذه الانقلابات الاجتماعية لا يحسب صبراً اذا قيس بالسنوات التي لا تتجاوز العشرين او الثلاثين عدّاً

على ان هناك ما يدعو للتفاؤل والاطمئنان ، وخصوصاً فيما يتعلق بشؤون الاسرة وتطورها فاذا قرأنا تشريع السوفيات في الزواج والطلاق ، وفي الامومة ورعاية الاطفال ، تيقنا ان أولئك المشترعين ليسوا من الشياطين او من الجن ، بل هم مثلك ، أيها القارىء الكريم ومثلي ، إنسٌ عقلاء بصراء ، ذوو مثل أعلى ، محبون للجنس الانساني ، غيورون — او غُيرٌ باللغة التي لا قياس لها — على خيره ، ومثابرون على العمل الذي يستقيم فيه ويدوم ناموس النشوء والارتقاء

***

أجل انهم ينشدون المثل الاعلى لخير الانسان في هذه الدنيا ، مثلك يا أخي فليكس ومثلي ، ويعملون لتحقيقه الاثمان الغالية ، مهما يكن من خلل فيها او شذوذ . وليس من الحق ان نشجب تلك الاثمان قبل ان نرى ونذوق ثمارها الناضجة . فلا تسرف ، يرحمك الله ، في التوقع والتفجّع . انا سائرون الى الامام على الدوام ، على الرغم من كل ما في حاضرنا من الفساد وعوامله ، ومن الردّات السياسية والدينية والاجتماعية